وساير الحياة » . ولا يخفى على أحد أن النظرة إلى الأمور على هذا النحو لايمكن أن ترى على الإطلاق شيئاً جديداً ، لأن كل جديد نواته موجودة من قبل ، وكأن الجديد لا يكون جديداً إلا إذا نشأ من غير نواة ، نشأ هكذا دون أن يدرى كيف نشأ . . أما إذا بحثت على أصله وحرثت الأرض لترى جذوره في الأعماق ، فلن يكون بعد ذلك شيئاً ، ولن يكون شيئاً إلا إذا غرس المجدد نواة تجديده بنفسه ، وانتظر الغرس حتى ينبت وينمو ويترعرع . . حينئذ يكون الجديد جديداً . . ويكون التأثير قائماً معترفاً به . وإذا حدث أن غرس المجدد النواة ولم تنبت فى عهده ، وإنما نمت فى عهد آخر ، فان يكون تجديداً كذلك لأن النواة قد وجدت من قبل ، أو ربما يكون مع بعض التجاوز والتسامح شيئاً ولكنه شيء يسير .

ويمضى الباحث على هذا النحو فيرى أثر القرآن فى الشعر ضئيلا ، لأنه لم يغير كنه ذلك الشعر ، ويرى الثقافة العربية لم يفعل فيها الإسلام شيئاً غير الصقل ، ولا يرى بين الحياة الجاهلية والحياة الإسلامية إلى عهد هشام فرقاً يؤثر فى الشعر تأثيراً يذكر . وإذا كان اللغويون والنحويون ظلوا يحتجون بالإسلاميين كما احتجوا بالجاهليين ، فليس يعنى هذا عند الباحث سوى أن الإسلاميين لم يتغيروا ولم يتأثروا بشيء ، وكأن ذنبهم فى ذلك أنهم حافظوا على قوة اللغة من الضعف ، وصانوا صفاءها من الشوائب ، وكان لا بد لهم لكى يكونوا فى صفوف الذين تأثروا ألا يحتج بهم أحد . . وسبب ذلك كله — فيما نرى — أن الباحث إنما يطلب الكثير وأكثر منه ، ويحمل المواقف أكثر مما تحتمل ، ويصور الشعر العربى وكأن انفجاراً كان ينبغى أن يقع فيه ، تتحول به معالم الأشياء تحولا لا يعلم إلا الله مداه . وانظر إلى تلك الصورة التي يرسمها الباحث لتكون المؤثرات عنده صاحبة الأثر ، وإلا انحسر التأثير عن لا شيء ، يقول :